من أخبار المسافرين (٢٨)

الفاروق يسافر إلى بيت المقدس

وبعد الاستخارة المتكررة والمشورة الطويلة من عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأصحابه قرَّر أن يسافر بنفسه من المدينة إلى بيت المقدس تلبيةً لدعوة قُوَّاده من المسلمين، وبناءً على رغبة البطريق الذي اتفق مع أبي عبيدة على الصلح على أن يسلم بيت المقدس لعمر بن الخطاب نفسه لا لأحد غيره لأنهم يقولون إن صِفَة الرجل الذي سيفتح بيت المقدس موجودة عندهم في كتبهم وهي تنطبق على رجل له أوصاف معينة، وكانت تلك الأوصاف كلها في عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ.

كتب أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بمدينة الجابية على هضبة الجولان بسورية في يوم حدده لهم، ثم سار في ملأ من كبار الصحابة إلاَّ عليًّا بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد استخلفه على المدينة مكانه.

فلما أتى الجابية جاءه أمراء الأجناد على خيولهم المُطَهَّمة، ورآهم في زينتهم، فأنكر ثيابهم الفاخرة، وأخذ بحصوات من الأرض، فرماهم بها، وقال: «إياي تستقبلون في هذا الزي! إنما شبعتم منذ سنين! سرعان ما ندّت بكم البطنة! فوالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم»! فقالوا: «ياأمير المؤمنين، إنما هي يلامقة (جمع يَلْمق فارسي معرب بمعنى: الجبة) وإن علينا السلاح». قال: «فنعم إذن»!.

وبينما كان عمر في الجابية، رأى جماعة من فرسان الروم قادمين من بعيد، ففزع المسلمون إلى سلاحهم وخيلهم، فقال لهم عمر: «لا تراعوا»! وإذا وفد أهل بيت المقدس قد أتوا عمر، يدعونه إلى الصلح،

وإلى دخول مدينتهم. . واستعد عمر للسفر إلى بيت المقدس، فأخذ يهيئ بعيره بنفسه للسفر. . ورأى أبوعبيدة أميرَ المؤمنين عمر في ثوب مرقَّع، فقال له: «ياأمير المؤمنين! لو ركبت بدل بعيرك جواداً، ولبست ثياباً بيضاء، لكان هذا أعظم في عيون الروم»! فقال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلاً».

ولكن أباعبيدة وبعض كبار الصحابة مازالوا بعمر حتى رضي بأن يغير مرقعته، وبعيره، فأتوا له بثوب أبيض من كتّان، فقال: «ما هذا؟» قالوا: «كتان» قال: «وما الكتان؟!» فأخبروه. .

وكان الفاروق وغلامه يتناوبان الركوب، فيركب هو مرحلة من الطريق، وغلامه مرحلة أخرى، حتى إذا دخلا بيت المقدس، كان الغلام راكباً، وأمير المؤمنين يمشي في الطريق الموحل، وأهل بيت المقدس لا يصدقون أنفسهم من الدهشة، وهم ينظرون!. . أي الرجلين هو أمير المؤمنين: أهو الراكب، أم هو هذا الذي يمشي تحت المطر. . .!؟

وصالح عمر أهل بيت المقدس على الجزية، فقد ثبتوا على دينهم. . وجاءت معاهدة الصلح محققة لمصالح الطرفين، وآية من احترام حرية العقيدة، والرأي، ورعاية حقوق الإنسان، وهذا هو نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء (بيت المقدس) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم، ولكنائسهم، وصلبانهم، وسائر ملتهم، أنه لا تُسَكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود (وكانت هذه هي رغبة أهل البلد)، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخْرِجوا منها

الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم (كنائسهم) وصلُبهم (جمع صليب) حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا ما عليهم من الجزية».

فرح أهل بيت المقدس بهذه المعاهدة فرحاً عظيماً، فها هو ذا أمير المؤمنين عمر يكفل لهم حرية العقيدة، بعد أن كان قيصر الروم يقهرهم على اعتناق مذهبه، فمن خالف منهم عذَّبه عذاباً أليماً، واستولى على أمواله وأرضه، وهدم بيته، على الرغم من أنه نصراني مثلهم! . . أين هذا مما يوفره لهم عهد أمير المؤمنين!.

سار عمر إلى بيت المقدس، حتى إذا بلغ الصخرة المقدسة، التي تخفق لها قلوب اليهود والنصارى والمسلمين على السواء أزاح عنها بيده التراب المتراكم عليها، وأمر المسلمين: «ابنوا عليها مسجداً».

ثم قصد محراب داود، فصلى فيه بالناس، وسهر، وسهر الناس معه يتعبدون حتى مطلع الفجر، فصلى الصبح بالناس، وقرأ في أول ركعة سورة (ص)، وفي الركعة الثانية سورة الإسراء.

وصحب بطريقُ بيت المقدس أمير المؤمنين، وطاف به على آثار المدينة، فزار هيكل سليمان، وكنيسة القيامة، وحانت صلاة الظهر، وعمر والبطريق في كنيسة القيامة، فدعاه البطريق إلى الصلاة، داخل

الكنيسة، فأبى عمر كي لا تكون سنة للمسلمين من بعده، فيُخرجوا النصارى من كنائسهم، فمدُّوا له بساطاً على باب كنيسة قسطنطين المجاورة لكنيسة القيامة، ليصلي، فأبى، كي لا يصلي المسلمون من بعده على عتبات الكنائس، وأعطى للنصارى عهداً بألا يصلي أحد من المسلمين على عتبة كنيسة أبداً!.

وانطلق عمر إلى المكان الذي أمر المسلمين بأن يقيموا عليه مسجداً، عند الصخرة المباركة، فصلى بالناس.

وأنهى عمر رحلته الخالدة العظيمة إلى بيت المقدس وحقق الله رجاءه وفتح الله له المدينة العالمية يفعل فيها ما يشاء. وكانت أنباء الفتح العظيم قد بلغت عليًّا والمسلمين في المدينة فاستقبلوه بظاهر المدينة استقبالاً عظيماً ملؤه البشر والفرحة والإكبار والإجلال وكلّ ذلك في غيرما بطر، ولا فخر، ولا كبرياء، وإنما في تذلل لله واعتراف بنعمته فهو الذي أعز جنده وهزم الأحزاب وحده. رضي الله عن عمر وعن الصحابة أجمعين. وإلى اللقاء مع مسافر آخر.

لامية الطغرائي

قال العميد أبوإسماعيل الطغرائي المتوفى سنة ٥١٣هـ في قصيدة لامية من أروع القصائد يشكو فيها الغربة ويدعو في الوقت نفسه إلى السفر والتنقل لكسب العيش وصيانة النفس ويحث المرء على القناعة وعلى عزَّة النفس وصيانتها عن الذل وعما في أيدي الناس وعن موارد الكدر ويشير إلى أن الحظ قد يكون في أغلب أحيانه مع الجهلة ومع الذين ليسوا أهلاً لما نالوا. وهي طويلة وقد اخترت منها بعض أبياتها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ ... وحلية الفضل زانتني لدى العطل
فِيمَ الإقامةُ بالزوْراء، لا سكني ... بها ولا ناقتي فيها ولا جملي
ناءٍ عن الأهل صِفْرُ الكفِّ منفردٌ ... كالسيف عُرِّي متناه عن الخلل
فلا صديقَ إليه مُشتكى حَرَبي ... ولا أنيس إليه منتهى جذلي
طال اغترابيَ حتى حنّ راحلتي ... ورحلها وقرا العسالة الذبل
أريد بسطة كف أستعين بها ... على قضاء حُقوق للعُلا قِبَلي
حبُّ السلامة يثني عزمَ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً ... في الأرض أوسلماً في الجوفاعتزل
ودع غمار العلا للمقدمين على ... ركوبها واقتنع منهن بالبلل
يرضى الذليل بخفض العيش مسكنة ... والعزُّ عند رسيم الأينق الذلل
فادرأ بها في نحور البيد جافلة ... معارضات مثاني اللّجم بالجدل
إن العلا حدثتني وهي صادقةٌ ... فيما تحدِّث أن العزّ في النّقلِ
لو أن في شرف المأوى بلوغ مُنى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل
أهبت بالحظ لو ناديت مستمعاً ... والحظ عنيَ بالجهال في شُغُل
لعلّه إن بدا فضلي ونقصُهُمُ ... لِعينه نام عنهم أو تَنَبَّهَ لي

أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
لم أرْتضِ العيش والأيام مقبلةٌ ... فكيف أرضى وقد ولت على عجل
غالىٰ بنفسيَ عرفاني بقيمتها ... فصنتها عن رخيص القدر مبتذل
وعادة السيف أن يُزهى بجوهره ... وليس يعمل إلاَّ في يَدَيْ بطل
تقدمتني أناسٌ كان شأوهمُ ... وراء خطويَ لو أمشي على مهل
هذا جزاء امرئ أقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الأجل
فإنْ عَلاَنيَ مَنْ دوني فلا عجبٌ ... لي أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتالٍ ولا ضجرٍ ... في حادث الدهر مايغني عن الحِيَلِ
فإنما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يُعوِّل في الدنيا على رجل
يا وارداً سُؤْرَ عيشٍ كُلُّه كدرٌ ... أنفقت صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لجّ البحر تركبه؟ ... وأنت تكفيك منه مصَّة الوشَل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه إلى الأنصار والخول
ترجو البقاء بدار لا ثبات بها ... فهل سمعت بظل غير منتقل؟
ويا خبيراً على الأسرار مطلعاً ... أُصْمُتْ ففي الصمت منجاةٌ من الزلل
قد رشحوك لأمرٍ إن فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

من أخبار المسافرين (٢٩)

التجارة الرابحة

قال الأصمعي: أنبأنا شبيب بن شيبة، قال: كنا بطريق مكة وبين أيدينا سفرة لنا نتغدى في يوم قائظ، فوقف علينا أعرابي ومعه جارية له زنجية، فقال: ياقوم أفيكم أحد يقرأ كلام الله حتى يكتب لي كتاباً؟ قال: قلت له: أصب من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم. فعجبنا من صومه في تلك البرّية، فلما فرغنا من غدائنا، دعونا به فقلنا: ما تريد؟ فقال: أيها الرجل، إن الدنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون ولا أكون فيها، وإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله عز وجل، ثم ليوم العقبة، تدري ما يوم العقبة؟ قوله عز وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: ١١-١٣] اكتب ما أقول لك ولا تزد عليَّ حرفاً: هذه فلانة خادم فلان، قد أعتقها لوجه الله عز وجل وليوم العقبة.

قال شبيب: فقدمت البصرة وأتيت بغداد، فحدثت بهذا الحديث المهدي، فقال: مئة نسمة تعتق على عهد الأعرابي ـ أي على نيته ـ.

إن مع العسر يسرا

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧]

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠]

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمساً بالضيق في لججٍ تهوي إلى لججِ
فإن تضايق أمر عنك مرْتَتجاً فاطلب لنفسك باباً غير مرتَتجِ
لا تيأسنَّ إذا ما ضقت من فرجٍ يأتي به الله في الروحات والدَلَجِ
فما تجرّع كأسَ الصبر معتصمٌ بالله إلاَّ أتاه الله بالفرجِ

أخي المسافر إن كنت ممن حَكمتْ عليه الظروف وقست عليه الأحداث فاضطررت للخروج من بلدك ومفارقة أوطانك والغياب عن أهلك وجيرانك فعليك بالصبر، وإن كنت قد ظلمتَ فأخرجتَ من أرضك وحُوربتَ في بلدك وطُردت من ديارك فعليك بالصبر.

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها فالصبر يفرج منها كلّما رتجا
لا تيأسنَّ وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلِقْ بذي الصبرأن يحظى بحاجته ومدمنِ القرعِ للأبواب أن يلجا

وإن كنت قد لجأت إلى الغربة وركبت الأهوال وعبرت المفاوز طلباً للعلم وتحصيلاً للفائدة فعليك بالصبر.

ومَن يصطبر للعلم يظفر بنَيْلهِ
ومن يخطب الحسناءَ يصبرْ على البذلِ
ومن لم يُذِلَّ النفسَ في طلب العلا
يسيراً يعشْ دهراً طويلاً أخا ذُلِّ

وإن كنت قد خرجت باحثاً عن لقمة العيش، وساعياً في مناكب الأرض لكسب الرزق وصيانة الوجه وحفظ الكرامة فعليك بالصبر.

لا يملأ الهول صدري قبلَ وقعَتِه ولا أضيق به ذَرْعاً إذا وقعا
ما سُدّ لي مطلعٌ ضاقت ثنيّته إلاّ وجدتُ وراء الضِّيقِ متَّسَعا

نعم أخي المسافر عليك بالصبر ولا تيأس ولا تقنط ولا تستسلم لأحداث الزمان وعوادي الأيام وقسوة الأعوام، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسرٌ يسرين.

يضيق صدري بغمٍّ عند حادثةٍ وربّما خيرَ لي في الغمّ أحياناً
وربّ يوم يكون الغمّ أوّله وعند آخره رَوْحاً وريحانا
ما ضِقْتُ ذرعاً بغمٍّ عند نائبةٍ إلاّ ولي فرجٌ قد حلّ أو حانا

ولله در القائل:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطنت المكارهُ واطمأنّتْ وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضرِّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منه غوثٌ يمنّ به القريبُ المستجيبُ
وكلّ الحادثات وإن تناهتْ فموصولٌ بها فرجٌ قريبُ

وقال الآخر:

صبرت على اللذات لما تولَّت وألزمتُ نفسي الصبرَ حتّى استمرّتِ
وكانت على الأيام نفسي عزيزةً فلمّا رأت صبري على الذلّ ذَلَّتِ
فقلتُ لها يا نفس عيشي كريمةً لقد كانت الدنيا لنا ثم وَلَّتِ
وما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتى فإن أُطْمِعَتْ تَاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ
فكم غمرةٍ دافعتها بعد غمرةٍ تجرّعتُها بالصبر حتّى تولَّتِ

اللهم اشرح صدورنا ويسِّر أمورنا ونوِّر قلوبنا.

المسافر والسماء

السماء ماذا عن السماء؟ ومن يملك أن يعبر عن السماء؟ أي قلم سيكتب الحديث وافياً؟ وأي بيان سيكون شافياً؟ وأي لغة يكون معها الكلام كافياً؟

لماذا؟ لأن السماء هي كل شيء بالنسبة لنا، قلوبنا، عواطفنا، عقولنا، مشاعرنا، اتجاهاتنا، آمالنا، آلامنا، أحلامنا، رزقنا، حياتنا، نعيمنا، شقاؤنا، رخاؤنا، وجودنا، فناؤنا، نصرنا، غيثنا، عزّنا، فَرَجُنا، حبنا، تعلقنا، كلُّ ذلك في السماء وإلى السماء ومن السماء.

إذا انقطعت بنا أسباب العيش وضاقت بنا سبل المعيشة لجأنا إلى السماء ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]

إذا أجدبت الأرض وامتنع القطر هرعنا إلى السماء وانتظرنا الغيث من السماء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النحل: ١٠]، ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل: ٦٥]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

﴿يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١]

إذا يبست الأشجار، وانقطعت الثمار، وذبلت الأزهار، وشحب لون الأرض بعد الاخضرار فإن حياتها في السماء، وازدهارها من السماء، ومَدَدُها من السماء ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٦٠]. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق: ٩]

إذا اشتدّ بنا الكرب، وادلهمَّت بنا الأمور، وضاقت علينا الدنيا بما رحبت اتجهنا إلى السماء، وانتظرنا الفَرَج من السماء ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣]

إذا اتَّجه من عميت بصيرته إلى غير السماء، ولجأ من تَعِسَتْ حياته إلى غير السماء فإن المؤمن يلجأ إلى السماء ويتجه إلى السماء ويتولى الذي في السماء ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩]

إذا أوذي الداعي إلى الله، وتنكَّر له قومه، ونصبوا له المكائد، فإنه يلجأ إلى السماء ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: ١٠]

إذا ظَلَمَت الأمم، وطغت البشرية، وزاغت الإنسانية فانتظر المقت من

السماء، وارتقب العذاب من السماء ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: ١٦٢]، ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ـ١٧]

فالسماء تربطنا بها رابطة قوية، فالأبصار تسعد بالنظر إليها، والقلوب تأنس بالركون إليها، لا للسماء في ذاتها وإنما لله تعالى الذي خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فاتجهنا بكل ما نملك إلى السماء، وأصبح التطلع إلى السماء واللجوء إلى السماء أمراً مركوزاً في طبيعة الإنسان ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾ [السجدة: ٤]

إن السماء آية عظيمة من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته، والشاهدة بعظمته، والناطقة بقدرته، ولذلك دعا عباده إلى النظر إليها والتأمل فيها ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن

كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: ٢]

اللهم فاطر السموات والأرض، أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفَّني مسلماً وألحقني بالصالحين.

إلى السماء

هذه رسالة صادقة يبعث بها أحد الشعراء إلى السماء عَبْر بريد: «إليه يصعد الكلم الطيب»، رسالة من أجمل ما قرأت لكأني بها تخترق الحجب وتنفذ في صدقها وروعتها وجمالها إلى عالِم غيب السموات والأرض، بواسطة «أما إن ربَّك يحبُّ الثناء»، إلى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى الذي تعلقت به قلوب المحبين، وهفت إليه أفئدة المتقين، غفر الله لقائلها وناقلها وقارئها، والقصيدة للشاعر محمد العلائي «مجلة الرسالة»:

لك الأمر لا يدري عبادك ما بيا ... لك الأمر لا للناصحين ولا لِيا
وهذي معاذيري وتلك صحائف ... عليها خطاياها.. وفيها اعترافيا
وفيها من الأمس الدفين وحاضري ... وفيها من الآتي وفيها ابتهاليا
وفيها تهاويلٌ.. ومهجة شاعر ... ينام بها يأساً ويصحو أمانيا
وفيها أعاجيب يكفِّر همها.. ... ذنوبي وإن كانت جبالاً رواسيا!!
ونازعني شوق إليك وهزّني ... من الغيب ما يهفو إليه رجائيا
وجئت من الدنيا الأثيمة هارباً ... بصفوي من أكدارها ونقائيا
وفي النفس ما أخشى ظلام ضبابه ... على نور إيماني ومسرى حيائيا
وذكرى من الماضي الشهيد وعالم ... ورائيَ منه خدعة وأماميا!
ونـاديت أحلامي إليك وخافقاً ... تهيَّب أسباب المنى والتماديا!!
أناديك في ضعف. وأخجل أن ترى ... جـراحَ أمـانيـه ولـون دمـائيـا
لك الأمر. أشواقي ببابك والمنى ... ولي أملٌ ألا يطول انتظاريا!

دعوتك بالسرِّ المغيَّب في دمي ... وألهمني حبي وفاض عتابيا
ولاح نشيد جئت أشرع لحنه ... فهابتك أرضي واستحتك سمائيا
لك الأمر. مالي أرتجيك فيلتوي ... لساني وأمضي بالتوسُّل شاكيا
ذَكْرُتكَ في نفس هَداها ضلالها ... إليك وعافت وحدتي وارتيابيا
ومنيت روحي من سناك بلمحة ... أُضَمِّد آلامي بها وجراحيا
وأرسلته فيما لديك لعله ... يعود بأسباب المحبة راضيا
تعاليتَ لم أذكر سواك بمحنتي ... ولم أرْجُ إلاَّ من يديك جزائيا
وفوَّضت عن علم إليك إرادتي ... وحسبيَ ما أدَّى إليه اختياريا
لك الأمر. شاقتني سماؤك وانتهى ... إليك بأحلام الضمير مطافيا
وأنزلتُ آمالي وفيها ملامح ... تردُّ أمامي ما تركت ورائيا!
يُطالعني منها زمان عرفتُه ... بريح لياليه ولون سهاديا!!
تُقلِّب ذكراه الدفين وماضياً ... تهرَّب منه في الشعاب خياليا!!
أطلَّت مآسيه ببابك فاستمعْ ... إليها حديثاً لم يسعه بيانيا
ضياؤك أغرى باليقين جوارحي ... وفجَّر أعماقي وأفضى بذاتيا
لك الأمرأسباب ضعافٌ وخاطري ... ببابك يخشى رجعتي وانحرافيا
دعوتك ملءَ النفس ألا تردَّه ... مغيظاً وألا تستعيد سؤاليا!!
وحاشاك أن أرضى مع النفس مذهباً ... بغير يقين منك يهدي شعاعيا!
كفانيَ أوهاماً فهب لي تميمة ... بها أتَّقي نفسي وشرَّ ذكائيا!!
وبارك فجاج الأرض إلاَّ مواضعاً ... شربن دموعي أو شهدن عثاريا
تناسيتها لولا حديث أهاجه ... تلفت أشواقي وخوف ارتداديا
وجدَّد لي همس الرحيل مكارهاً ... تولَّى شجاها والجراح كما هيا
وأياميَ اللاتي ذهبن وعالماً ... دفنت به عهدَ الصَّبَا وشبابيا

وأودعته سراً حراماً ولم أزَلْ ... أعود فأبكيه دموعاً غواليا
لك الأمر. هذا من يديك عدالة ... وهذا قليل في مقام اتصاليا
أتيتك والحق الصريح يمدُّني ... إليك ولحن البشر ملءُ فؤاديا
وفي النفس فجر من يقين وموكب ... من الخير يحدوه إليك ولائيا
وفيها رجاءٌ فاض منك جلاله ... وآفاق نور يستحيها ضيائيا
وأحببت حتى أسكرتني مودَّتي ... وذاب يميني رحمة وشماليا!!
وهامت بآلام الحياة وسائلي ... وفاضت على ما ليس مني هباتيا
وأرسلت أنسامي عبيراً وبهجة ... لتنفح أشواك الرُّبىٰ والأفاعيا!!
وآمنت حتى كاد يذهب خاطري ... وتصعد أنفاساً إليك حياتيا!
ولم يبق حرف منك إلاَّ أسرَّه ... ضميري وأبدَته إليك سمائيا!!
لك الأمر آفاق تراءت لخاطري ... وعاودني منها دبيب شكاتيا!
وذكرني بشرُ السماء منازلاً ... أتيتك منها عابس الوجه داميا
أقلِّب أوهامي يميناً ويسرة ... وأرفع آمالاً إليك روانيا!!
ينازعني ماض شَرِقْتُ بعذبه ... وراودت فيه ما أشاب النواصيا
إذا طاف منه حول نفسيَ طائف ... ذكرت زماني والسنين الخواليا
هناك وفي أرض عليها ملاعبي ... وأطياف آبائي ولغْوُ دياريا
وفيها تَعِلاَّتي وراح مشاربي ... وزلات أهوائي ودمع متابيا
وأحلاميَ الموتى وذات مواجعي ... وأطلال مأساتي ورجع بلائيا
لك الأمر. ألهاني حديث أعاده ... عليك ضميري واستحاه لسانيا!!
وأسرفت في ذكر المساء ولم أكن ... لأسرف لولا رجفة من صباحيا
لك الأمر. نادت بالرحيل خواطري ... وهبت على نفسي رياح اغترابيا
وذكَّرتها أن الشعاب جديدة ... وأن عليها من سناك هواديا!
وأن شعابَ الأمس واجهتُ غَيها ... على غير إيمان فكانت مهاويا!!

هي الأرض تبلوني لتبلو وخطبها ... على نور إدراكي وضوء نفاذيا!!
لك الأمر. مالي في وداعك باهتاً ... ومالِيَ أخطو شاحب النفس نائيا
لك الأمر. لاحت من بعيد مذاهبي ... وآذن حاديها وآن ارتحاليا!!
وَرَفَّتْ عليها من سناك مآثر ... ورفت عليها غايتي وصلاتيا
تَنَسّمْتُ أمواج الرحيل وأشرفت ... عليَّ أمانيه فبارِكْ شراعيا!!

* * *

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

[سورة فاطر]